الفصل الثاني:
[النشاط العسكري بين بدر وأحد]

النشاط العسكري بين بدر وأحد:

ارتفعت معنويات المسلمين كثيرا بعد انتصارهم الكبير في معركة بدر الكبرى، والتي تعد أول لقاء مسلح بينهم وبين المشركين، وكانت معركة فاصلة أكسبت المسلمين نصراً حاسماً شهد له العرب قاطبة، وقد حرصوا على تأديب المعاندين من المشركين في نطاق المدينة وما حولها، في حين كان المشركين أشد استياء لنتائج هذه المعركة وهم الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة؛ وانكسرت شوكتهم، وأصبحت لدي الفريقين رغبات وطموحات متباينة فالمسلمون يريدون استغلال نصرهم الكبير في بدر وتوسيع نطاق دعوة الإسلام ونصرة المستضعفين، والمشركون - الذين أحسوا بالذلة والمهانة بين العرب بعد بدر - يريدون الأخذ بالثأر وغسل جراحهم المثخنة بعد بدر بنصر جديد يزيل عنهم الذلة والمهانة بين العرب، وعليه فالحالة العسكرية بين الدولة الإسلامية في المدينة وكفار العرب علي حالها في انتظار جولة جديدة من المعارك، وهناك عناصر أخري دخلت في معاداة الدولة الإسلامية الوليدة، أمثال المنافقين الذين اضطرتهم الأوضاع الجديدة بعد بدر إلي الدخول في الإسلام نفاقا وخديعة، واليهود الذين - أساءهم كثيرا انتصار المسلمين في بدر - يحترقون غيظاً وحنقًا على المسلمين.

غزوة قرقرة الكدر:

غزا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد سبع ليال من عودته إلى المدينة من غزوة بدر، وبلغ ماء الكدر في ديار بني سليم الذين قصدهم بغزوته هذه، غير أنه لم يلق حربا فأقام ثلاث ليال على الماء ثم رجع إلى المدينة [1].

وكانت قبيلتا غطفان وبنو سليم جمعت جموعا على ماء لبني سليم بقرقرة الكدر بهدف الاعتداء علي المسلمين بعد معركة بدر مباشرة، وحين بلغت أنباء هذا التجمع الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاد بنفسه جيشا من مائتي مقاتل وداهمهم على الماء. وقد فر هؤلاء المتجمعون لقتال المسلمين لمجرد سماعهم أنباء قدوم الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تاركين خلفهم جمالهم التي بلغ تعدادها ٥٠٠ بعير، فكانت غنيمة للمسلمين، وأقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أيام في الموقع -

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٣/ ٦٤، موسوعة نظرة النعيم، ١/ ٢٩٦.

كعادته في غزواته - قبل أن يعود إلى المدينة [1] .

وعلي طرق العودة إلي المدينة ، قسّم الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإبل على أصحابه ، فأصاب الواحد منهم بعيرين ، ونال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُمْسَها ، اصاب غلاماً له يقال له يسار ، فأعتقه .

وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ٢ هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام ، أوفي المحرم للنصف منه ، واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سِبَاع بن عُرْفُطَة . وقيل: ابن أم مكتوم [2] .

محاولة اغتيال الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإسلام عمير بن وهب:

تعددت محاولات قريش في صد دعوة الإسلام ، فبعد فشلهم عسكريا في بدر ، تفتق ذهن شياطينهم في حيلة إبليسية وهي محاولة الوصول إلي الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واغتياله ، وكان صاحب هذه المحاولة هو عمير بن وهب الجمحي وصفوان بن أمية ، ولكن يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

قال عروة بن الزبير: جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحِجْر ، بعد مصاب أهل بدر بيسير ، وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش ، وممن كان يؤذي الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ، ويلقون منه عناء وهو بمكة ، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر ، فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان: (والله ما في العيش بعدهم خير) . قال له عمير: صدقت ، أما والله لولا دَيْنٌ علي ليس عندي قضاؤه ، وعيال أخشى عليهم الضيعة [3] بعدي ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لي فيهم علة [4] ، ابني أسير في أيديهم .

قال: فاغتنمها صفوان بن أمية فقال: عليّ دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أواسيهم [5] ما بقوا ، لا يسعني شيء ويعجز عنهم ، فقال له عمير: فاكتم علي شأني وشأنك . قال: أفعل .

---

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ٢/ ٣١ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣/ ٦٤ ، ابن سعد ، الطبقات ، ٢/ ٣١ ، ابن القيم ، زاد المعاد ، ٢/ ٩٠ .

(٣) الضيعة: الضياع والتشتت .

(٤) العلة: السبب .

(٥) أواسيهم: أقوم على أمرهم ومؤونتهم .

قال: ثم أمر عمير بسيفه، فشحذ وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم في عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب وقد أناخ راحلته على باب المسجد متوشحًا سيفه، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، ما جاء إلا لشرٍ وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر. ثم دخل عمر على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فأدخله عليَّ**» قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة[1] سيفه في عنقه فلبَّبه[2] بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون. ثم دخل به على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رآه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: «**أرسله يا عمر، ادنُ يا عميرُ**».

فدنا ثم قال: انعموا صباحًا، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة**».

فقال: أما والله، يا محمد إن كنت بها لحديث عهد.

فقال: «**فما جاء بك يا عمير؟**» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه. قال: «**فما بال السيف في عنقك؟**» قال: قبَّحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئًا؟!! قال: «**اصدقني ما الذي جئتَ به؟**» قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: «**بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دينٌ عليَّ وعيالٌ عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك**».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام،

---

(١) حمالة السيف: ما يربط به السيف على الجسم.

(٢) لببه: قيده.

وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن، وأطلقوا أسيره ففعلوا**». ثم قال: يا رسول الله إني كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى رسوله، وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم، قال: فأذن له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلحق بمكة وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب، يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عن الركبان، حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدًا»[1].

نعم لقد دبر وخطط صفوان وعمير في سرية تامة، ولكن يمكرون ويمكر الله، ونعم لقد استغل صفوان فقر عمير وقلة ذات يده ودَيْنه وأرسله إلى هلاكه، ولكن الله عز وجل اختار عمير وهداه للإسلام، ولقد جاء عمير يريد النيل من الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأعلمه الله عز وجل بذلك، ومع ذلك عفا عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأحسن إليه وتجاوز عنه وعفا عنه وأطلق له ولده الأسير بعد أن أسلم وقال لأصحابه: «**فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره**»، وبعد أن جاء عمير إلي المدينة يريد النيل من نبي الإسلام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويمتلئ قلبه حقدا وحسدا علي الإسلام والمسلمين فقد عاد إلي مكة داعية إلي الإسلام والتوحيد، وأسلم على يديه ناس كثير.

مقتل أبي عفك اليهودي:

قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة المنورة دار هجرته بدعوة من الأنصار الذين آمنوا به وبرسالته ونصروه، ولكن كانت هنالك قلة قليلة منهم بقيت على شركها، وبنو عمرو بن عوف هي إحدى القبائل الأوسية المنضمة إلى حظيرة الإسلام، وقد كانت كغيرها من القبائل الأنصارية، الغالبية العظمى مسلمين، وقليل منهم الذين بقوا على شركهم.

وكان من هؤلاء شيخ كبير[2] قد عسا[3]، عظيم الكفر، شديد الطعن على

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢١٢، صحيح السيرة النبوية، ص٢٦٠.

(٢) يذكر الواقدي، وابن سعد أنه قد بلغ من العمر عشرين ومائة سنة. انظر: الواقدي، المغازي، ١/ ١٧٤، وابن سعد، الطبقات، ٢/ ٢٨.

(٣) العسوس من الرجال إذا قل خيره. ابن منظور، لسان (عس).

المسلمين، يدعى أبا عفك[1]، وكان قد امتلأ قلبه بالحقد والحسد للمسلمين، وهو يرى التفاف الأوس والخزرج على نصرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وازداد كيده بالإسلام وأهله بعد أن رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزداد قوة وتمكينًا في المدينة وما حولها بعد غزوة بدر، فلم يطق لذلك صبرًا، فأخذ ينشد الشعر يهجو به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويحرض على عداوته، ويسفه رأي الأنصار لمتابعتهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومناصرته[2].

فلما رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه متمادٍ في غيه، لدرجة أنه يريد تأليب الناس عليه، وإثارة الفتنة والشقاق بين المسلمين ندب الصحابة لقتله قائلاً: "من لي بهذا الخبيث"[3]. وهنا يتجلى الإيمان في أروع مظاهره، فلا يتطوع لقتل أبي عفك ذلك الخبيث المرجف إلا رجلٌ من قومه شاب مغواري إيماني، من بني عمرو بن عوف، وأحد البكائين في غزوة تبوك، ذلكم هو سالم بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث نذر على نفسه ليقتلنه أو يموت دونه، فقام بإعداد خطة محكمة للقضاء عليه دون أن يشعر به أحد من أشياعه "فأمهل يطلب له غرة[4] حتى كانت ليلة صائفة، فنام أبو عفك بالفناء، وعلم به سالم بن عمير، فأقبل فوضع السيف على كبده،

---

(١) يذكر ابن سعد أن أبا عفك كان يهوديا مع أنه نسبه إلى بني عمرو بن عوف. الطبقات (٢/ ٢٨) فلا يعرف أيقصد بذلك أنه من متهودتهم أم أن ذلك وهم منه، أو نسبه إلى اليهود مجازًا، لأن غالبية المنافقين كانوا يوالونهم، ويجتمعون بهم كثيرا، ويأتمرون فيما بينهم بالمسلمين، كما ذكر القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].
قال بعض المفسرين: المراد بشياطينهم من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. انظر ابن كثير، تفسيره، ١/ ٥١، والله أعلم. وانظر: بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٣١.

(٢) كان مما قاله:

لقد عشتُ دهرا وما إن أرى ::: من الناس دارًا ولا مَجمعا
أبرَّ عهودًا وأوفى لمن ::: من أولاد قَبلة في جمعهم
يعاقدُ فيهم إذا ما دعا ::: يَهُدُّ الجبالَ ولم يخضعا
فصدَّهم راكبٌ جاءهم ::: حلالٌ حرام لشتى معا
فلو أن بالعز صدَّقتم ::: أو الملكِ تابعتم تُبَّعا

ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ٦٣٦.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ٦٣٦.

(٤) غرة: غفلة. اللسان، والقاموس (غرو).

ثم اعتمد عليه حتى خش في الفراش، وصاح عدو الله "فتركه سالم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مضرجًا بدمائه يخور كالثور، حيث ثاب إليه ناس من أصحابه "ممن هم على قوله، فأدخلوه منزله، وقبروه". متسائلين بدهشة كما يذكر الواقدي "من قتله؟ والله لو نعلم من قتله لقتلناه به"[1].

فقالت أمامة المريدية في ذلك:

تُكَذِّبُ دينَ اللهِ والمَرْءَ أحمدا ::: لَعَمْرُ الذي أَمْنَاكَ أَنْ بِئْسَ ما يُمْنِي
حِبَاكَ حَنِيفٌ آخِرَ اللَّيلِ طعنةً ::: أبا عفكٍ خُذها على كِبَرِ السِّنِّ[2]

مقتل عصماء بنت مروان:

ذكر أرباب السيرة أن أعمى كان على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت له أم ولد شقية انزلقت في مهاوي الضلال، فأعماها الحقد والحسد للإسلام وأهله، مما جعلها "تكثر الوقيعة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتسبه، فيزجرها فلا تنزجر وينهاها فلا تنتهي "فضاق بها ذرعًا لتماديها في أمر لا يُصبر على مثله، فقرر القضاء عليها على الرغم من حاجته الماسة إليها لضرارته، فضلا عن كونها أمًّا لولده، ولكن الإيمان وحب الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموالاتهما لا يدانيه حب مهما بلغ "فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتشتمه، فأخذ المغول[3] فوضعه في بطنها واتكأ عليها فقتلها، فوقع بين رجليها طفل[4] فلطخت ما هناك بالدم".

وفي صباح اليوم التالي يصل الخبر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر بجمع الناس، ثم قام فيهم خطيبا كعادته حينما يحدث أمر ما فقال: «**أنشد الله رجلا فعل ما فعل لي عليه حق إلا قام**»[5].

فما كان من الرجل وهو يسمع مناشدة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بد من إجابته، فقام يتخطى الناس مضطربا حتى قعد بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٢٨، الواقدي، المغازي، ٢/ ١٧٥.

(٢) ابن هشام، السيرة، ٤/ ٦٣٥ - ٦٣٦، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٣٢.

(٣) المغول: حديدة رقيقة لها حد ماض وقفا. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (غول).

(٤) ربما كانت حاملا عندما قتلها فأسقطت ما في بطنها، أو أنه أحد ولديهما الصغيرين وقع بين رجليها، والله أعلم.

(٥) رواه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: سنن أبي داود، ٤/ ٥٢٨ - ٥٢٩.

فقال: يا رسول الله أنا صاحبها، كانت أم ولدي، وكانت بي لطيفة رفيقة، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين، ولكنها كانت تكثر الوقيعة فيك وتشتمك، فأنهاها فلا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر ثم شرح له بالتفصيل كيف قتلها، عند ذلك قال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا اشهدوا أن دمها هدر**» (١).

يتضح لنا من سياق هذه القصة مدى الحب الطاغي المسيطر على قلوب أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له، فهذا رجل ضرير لديه مثل هذه المرأة الرفيقة به، اللطيفة معه على ما به من الضرارة، علاوة على أنها أم لولديه الصغيرين، ومع ذلك كله قتلها غضبا لله عز وجل ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم تمنعه حاجته الشديدة لها، ولم يغره لطفها ورفقها به، ولم يشفع لها عنده أمومتها لولديه الصغيرين، لأنه ممن كتب الله في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، وهكذا المؤمن الكامل الإيمان يقدم حبّ الله عز وجل ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموالاتهما على كل شيء آخر حتى لو كان نفسه، قال الله تعالى: ﴿**لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [المجادلة: ٢٢] (٢).

ومما نستنبطه من هذا الخبر والذي قبله: أن سابَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مهدر الدم، فقد ذكر كل من المنذري والخطابي، أنه لا خلاف في أن سابه من المسلمين يجب قتله، وأما الخلاف إذا كان ذميًا، فقال الشافعي: يقتل وتبرأ منه الذمة، وقال أبو حنيفة: لا يقتل، ما هم عليه من الشرك أعظم. وقال مالك: من شتم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من اليهود والنصارى قتل إلا أن يسلم، وكذلك قال أحمد بن حنبل (٣).

غزوة بني قينقاع:

لقد امتلأت قلوب اليهود حقدا علي الإسلام ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ اليوم الأول لبعثته، وناصبوه العداء وتربصوا بالإسلام والمسلمين، ولقد كانت نفوسهم

---

(١) روه أبو داود، والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما انظر سنن أبو داود، ٤/ ٥٢٩، وسنن النسائي، ٤/ ١٠٨.

(٢) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٣٢.

(٣) سنن أبو داود، ٤/ ٥٢٨ - ٥٢٩ حاشية (٣)، وأبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ١٢/ ١٦ - ١٧.

تفيض بالعداوة والبغضاء للمسلمين في المدينة منذ الهجرة إليها ، قالت صفية بنت حيي: كنت أحب ولد أبي [١] إليه وإلى عمي أبي ياسر [٢] لم ألقهما مع ولد لهما إلا أخذاني دونه فلما قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة غدا عليه أبي وعمي مغلسين[٣] فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس فأتيا كالين [٤] كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى فهششت[٥] إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت إلي واحد منهما مع ما بهما من الغم وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي أهو هو قال: نعم والله قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم قال: فما في نفسك منه ، قال: عداوته والله ما بقيت[٦] .

ولقد سعي الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بداية الهجرة إلي كف أذاهم والبعد عن شرورهم حرصاً على رشدهم ، وعلى بسط الأمن والسلام في المنطقة ، فعقد معهم معاهدة سلام ، إلا أن ذلك لم يمنعهم من مناوشة المسلمين والكيد لهم والتحريض عليهم ، ولقد فاضت نفوسهم بالعداوة بعد أن رأوا الوفاق والمحبة تملأ قلوب المهاجرين والأنصار ، وسعوا إلى إحداث الفرقة والشقاق في صفوفهم ، فقد تفتق ذهن أحد شيوخهم الكبار في السن عن حيلة هدف بها إلى تفريق وحدة الأنصار ، وذلك بإثارة العصبية القبلية بينهم ليعودوا إلى جاهليتهم ، فتعود الحروب بينهم كما كانت ، قال ابن إسحاق: مر شاس بن قيس - وكان شيخاً يهودياً قد عسا [٧] ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأي من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم

---

(١) حيي بن أخطب بن سعية ، وقيل سعنة بن عامر بن عبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب بن النضير بن النحام بن ينحوم من بني إسرائيل من سبط هارون بن عمران عليه السلام وهو من سبط لاوي بن يعقوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم . الطبقات الكبرى ٨/ ١٢٠ ، أسد الغابة ٥/ ٤٩٠ ، الإصابة ٤/ ٣٤٦ ، كلهم ذكر ترجمته عند ذكر صفية أم المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها - .

(٢) أبو ياسر بن أخطب لم يرد ذكره منفرداً بل مقترناً بأخيه وبكونهما عدوين لدودين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انظر: السيرة النبوية ١/ ٥١٤ ، ٥١٩ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٦٠ .

(٣) مغلسين: الغَلَس ظلمة آخر الليل والتغليس السير بغلس . مختار الصحاح ٤٧٨ .

(٤) كالين: كلّ الرجل والبعير من المشي يكل كلالاً وكلالة أي أعيا . مختار الصحاح ٥٧٦ .

(٥) هششت: الهشاشة بالفتح الارتياح والخفة للمعروف . المصدر السابق ٦٩٥ .

(٦) انظر: السيرة النبوية ١/ ٥١٨ - ٥١٩ ، ٢/ ٢٤١ ، الاكتفاء ١/ ٤٧٣ ، وفاء الوفاء ٢٦٩ .

(٧) عسا: كبرت سنه .

على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَةَ [1] بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود كان معه، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعَاث [2] وما كان من قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جَذَعَة [3] وغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة - والظاهرة: الحَرَّة - السلاح السلاح، فخرجوا إليها، وكادت تنشب الحرب.

فبلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: «**يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوي الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم**» فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس [4].

فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس وماصنع: ﴿**قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ واللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [آل عمران: ٩٨ - ٩٩]

وأنزل الله في أوس بن قيظي وجبار بن صخر وكان معهما من قومهما الذين صنعوا عمّا أدخل عليهم شأس من أمر الجاهلية: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ**

---

(١) قيلة: أم الأوس والخزرج.

(٢) يوم بعاث كانت حرباً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلي، وأبو أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، فقتلا جميعاً.

(٣) يعني الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التي كانت بينهم من جديد.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢١١ - ٢١٤.

﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٠ - ١٠٥].

وأسلوب الدس والوقيعة هو أحد وسائل اليهود الخبيثة في حرب الإسلام ومحاولاتهم المستمرة لتمزيق الصف المسلم وتخريبه، بتقطيع أواصر المحبة بين المسلمين وذلك بإثارة الفتن الداخلية، والشعارات الجاهلية، والنعرات الاقليمية، والدعوات القومية والقبلية، والسعي بالدسيسة والوقيعة بين الأخوة المتآلفين المتوادين المتحابين.

فلما كانت غزوة بدر وانتصر المسلمون فيها انتصارًا كبيرًا على قريش، ساء اليهود هذا النصر فبدأت طوائفهم تتغامز بالمسلمين، وتغري بهم، وتحرض عليهم، ولمارأي الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك منهم جمعهم في سوقهم بالمدينة ونصحهم، ودعاهم إلى الإسلام، وحذّرهم أن يصيبهم ما أصاب قريشا في بدر[1].

غير أن ذلك لم يزدهم إلا عنادا واستكباراً وقابلوا الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتحدي والتهديد رغم ما يفترض أن يلتزموا به من الطاعة والمتابعة لبنود المعاهدة التي جعلتهم تحت رئاسته، فقد جابهوه بقولهم: «يا محمد! لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال. إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا»[2].

وهكذا بدأت الأزمة تتفاعل إذ لم يكن في جوابهم ما يشير إلى الالتزام والاحترام، بل على العكس فإنهم قد أظهروا روحا عدائية، وتحديًا واستعلاء واستعدادا للقتال، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢ - ١٣].

وكان بنو قينقاع يقيمون بداخل المدينة، وفي حيهم يقوم سوق عرف

(١) ابن هشام - السيرة ٢/ ٢٩٤، أبو داود - السنن ٣/ ٤٠٢ - ٣، وانظر: ابن حجر - فتح الباري ٧/ ٣٣٢.
(٢) ابن هشام - السيرة ٢/ ٢٩٤.

باسمهم، وكانوا صاغة يعملون في صناعة الحلي، ولإقامتهم بين المسلمين كانوا أكثر قبائل اليهود احتكاكاً، وكان وجودهم هذا مما يثير حفائظهم كما كان يشكل في الوقت نفسه خطرًا على كيان المدينة اليثربية أو فوجئت بهجوم خارجي وحدثتهم أنفسهم بالخيانة، ثم إنهم كانوا أشداء لعدم اعتمادهم على الحصون كبقية اليهود، فأغرتهم قوتهم بتحدي المسلمين فلما قدمت امرأة من الأنصار إلى سوقهم لتبيع بعض حليها، وجلست إلى صائغ منهم، عبث بها بعض رجالهم، فقد عقد طرف ثوبها وهي جالسة دون أن تعلم، فلما قامت انكشفت فاستصرخت المسلمين فأغاثها أحدهم وقتل اليهودي، غير أن اليهود تواثبوا على ذلك المسلم وقتلوه، واستصرخ أهل المسلم إخوانهم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، ولم يبق من سبيل لعدم مقاتلتهم، وإلا تعرض المسلمون وتعرض سلطانهم للخطر[1].

وحين علم الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك سار إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، وذلك يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية للهجرة، وكان الذي حمل لواء المسلمين يومئذ حمزة بن عبدالمطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واستخلف الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المدينة أبا لبابة بن عبدالمنذر العمري واسمه بشير. وحين سار إليهم الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبذ إليهم العهد كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال، آية: ٥٨].

وحين علم اليهود بمقدمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة، وقذف الله في قلوبهم الرعب - فهو إذا أرادوا خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذفه في قلوبهم - فنزلوا على حكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم فكتفوا، واستعمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على كتافهم المنذر بن قدامة السلمي الأوسي.

وحينئذ قامت حركة النفاق بقيادة عبد الله بن أبي بن سلول بدورها، فحاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يحلّ حلفائه من وثاقهم، فعندما مرّ عليهم قال: حلّوهم: فقال المنذر: أتحلون قوماً ربطهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ والله لا يحلهم

(١) ابن هشام - السيرة ٢/ ٤٢٦، أحمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول، ص ٣٨٨.

رجل إلا ضربت عنقه، فأتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يامحمد، أحسن في موالي - وكانوا حلفاء الخزرج - قال: فأبطأ عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال يامحمد: أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل ابن أبي يده في جيب ودرع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أرسلني**»، وغضب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى رأوا لوجهه ظللاً [1]، ثم قال: ويحك أرسلني، قال: «**لاوالله**»، لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربع مائة حاسر، وثلاثة مائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هم لك**» [2].

وقد أحسن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلي عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرُعَات الشام، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم، وغنم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون ماكان لديهم من مال، وقد تولى جمع أموالهم وإحصاءها محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [3].

وقد حاول ابن أبي بن سلول أن يثني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حكم إجلائه يهود بني قينقاع وأراد أن يُقرّهم في ديارهم، فذهب إلي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوجد على بابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُويم بن ساعدة الأنصاري الأوسي، فردّه عويم وقال: لاتدخل حتى يأذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لك، فدفعه ابن أبي، فغلّظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن أبي الجدار فسال الدم فتصايح حلفاؤه من يهود فقالوا: أبا الحباب لا نقيم أبدا بدار أصاب وجهك فيها هذا، لا نقدر أن نغيره. فجعل ابن أبي يصيح عليهم وهو يمسح الدم عن وجهه يقول ويحكم قروا فجعلوا يتصايحون لا نقيم أبدا بدار أصاب وجهك فيها هذا، لا نستطيع له غيرا [4].

وعلي النقيض تماما من موقف عبد الله بن أبي بن سلول جاء موقف عبادة

---

(١) ظللا: جمع ظلة وهي السحابة، استعارها لتغيير الوجه عند الغضب.

(٢) ابن هشام - السيرة، ٢/ ٤٢٦، الدرر في اختصار المغازي والسير، ١/ ١٤٩، الروض الأنف، ٣/ ٢٢٤، أحمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول، ص ٣٨٨.

(٣) ابن هشام - السيرة، ٢/ ٤٢٦، الدرر في اختصار المغازي والسير، ١/ ١٤٩، الروض الأنف، ٣/ ٢٢٤، أحمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول، ص ٣٨٨.

(٤) المغازي للواقدي، ١/ ١٧٨.

بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وكان عبادة بن الصامت أحد بني عوف - لهم من حلف بني قينقاع مثل الذي لهم من عبدالله بن أبي - ، فلما نقضت العهد بنوقينقاع مشى لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخلعهم إليه ، وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حلفهم وقال: يارسول الله ، أتولى الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم ، وفيه وفي عبد الله بن أبي ، نزلت هذه القصة من المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [المائدة ا: ٥١ - ٥٢] ، - لعبد الله بن أبي ، وقوله: إني أخشى الدوائر -: ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [المائدة: ٥٢ - ٥٣] ، ثم ذكر القصة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] .

وذكر لتولي عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا ، وتبرئه من بني قينقاع وحلفهم وولايتهم: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦] (١) .

إن الفرق واضح بين ابن سلول الذي انغمس في النفاق ، ومرد عليه ، وبين عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي تربى على المنهاج النبوي ، فصفت نفسه ، وتطهر قلبه ، وقوي إيمانه ، وتنور عقله ، فتخلص من آثار العصبية الجاهلية ، والأهواء ، والمصالح الذاتية ، وقدم مصلحة الإسلام على كل مصلحة ، فكان مثلاً حياً للمسلم الصادق ، المخلص لعقيدته (٢) .

غزوة السويق:

بدت الحالة الداخلية هادئة في المدينة بعد النصر الذي أحرزه المسلمون في بدر ، وبعد إجلائهم بني قينقاع ، وانكمشت الطوائف الأخرى من غير المسلمين ، وخفتت أصوات المعارضة ، وكان من الممكن أن يستمر هذا الهدوء فترة طويلة لولا أن أبا سفيان بمكة لم يطق صبرًا على عار بدر . ولم يطق أن يظل قابعًا في مكة

(١) سيرة ابن إسحاق المسماة بكتاب المبدأ والمبعث والمغازي ، ١/ ٢٩٥ - ٢٩٦ ، وسيرة ابن هشام ، ٢/ ٤٩ .

(٢) السيرة النبوية الصحيحة ، ١/ ٣٠٢ .

دون أن يعيد إلى أذهان العرب أن قريشًا لا تزال لها قدرتها على الضرب والغزو؛ لذلك ما لبث بعد شهر أن جمع مائتين من رجال مكة وخرج بهم مستخفين، حتى إذا ما وصلوا منطقة المدينة ليلًا نزل على بني النضير في حصن زعيمهم سلام بن مشكم حيث قراه [1] وسقاه وبطن له من خبر الناس [2] ثم خرج في عقب ليلته هذه، فأغاروا على ناحية العريض فحرقوا بها بيتين ونخلًا ووجدوا رجلًا من الأنصار وحليفًا له يعملان في حرث لهما فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين [3].

وندب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه فخرجوا في أثر أبي سفيان حتى بلغ قرقرة الكدر على نحو أربعة وعشرين ميلًا من المدينة، وأبو سفيان ومن معه جادون في الفرار يتزايد خوفهم فيلقون ما يحملون من زادهم من السويق [4]، فإذا مر به المسلمون أخذوه، ولذلك سميت هذه الغزوة غزوة السويق، وقد وقعت في ذي الحجة سنة ٢ هـ بعد بدر بشهرين، واستعمل على المدينة في هذه الغزوة أبا لبابة بن عبد المنذر [5].

وهكذا انقلب فرار أبي سفيان عليه بعد أن كان يحسب أن الغزوة ترفع من شأن قريش بعد مصاب بدر [6].

غزوة ذي أمر:

لما رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريبا منها ثم غزا نجدا يريد غطفان وهي غزوة ذي أمر، وكانت الأخبار قد جاءت من قِبَل رجال الاستخبارات الإسلامية تفيد بأن رجال قبيلتي ثعلبة ومحارب تجمعوا بذي أمر بقيادة دُعثور بن الحارث المحاربي، يريدون حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإغارة على المدينة، فاستعمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المدينة عثمان بن عفان وخرج في أربعمائة وخمسين من المسلمين بين راكب وراجل، فأصابوا رجلا بذي القصة يقال له جبار من بني ثعلبة، كان يحمل أخبارًا عن قومه أسرَّ بها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد دخل في الإسلام وانضم إلى

---

(١) قراه: ضيَّفه.
(٢) بطن له من خبر الناس: أعلمه من سرهم.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٤٢٢.
(٤) السويق: هو أن تحمّص الحنطة والشعير ثم يطحن باللبن والعسل والسمن.
(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٤٢٢ - ٤٢٣.
(٦) أحمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ٣٥٢.

بلال ليعلمه الشريعة الإسلامية كما هو دأب الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العناية بتعليم المسلمين، أما المشركون من بني ثعلبة ومحارب ما لبثوا أن فروا إلى رؤوس الجبال عند سماعهم بمسير المسلمين، وبقي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نجد مدة تقارب الشهر دون أن يلقى كيدًا من أحد وعاد بعدها إلى المدينة.

وفي هذه الغزوة أسلم دعثور بن الحارث - مع أنه هو الذي جمع قومه لمحاربته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كان سيدًا مطاعًا بعد أن حدثت له معجزة على يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد أصاب المسلمين في هذه الغزوة مطرٌ كثيرٌ فابتلت ثياب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنزل تحت شجرة ونشر ثيابه لتجف، واستطاع دُعثور أن ينفرد برسول الله بسيفه، فقال: يا محمد من يمنعك مني اليوم؟ قال: «الله»، ودفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده فأخذه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «من يمنعك مني» قال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والله لا أكثر عليك جمعًا أبدًا، فأعطاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيفه فلما رجع إلى أصحابه فقالوا: ويلك، ما لك؟ فقال: نظرت إلى رجل طويل فدفع صدري فوقعت لظهري، فعرفت أنه ملك، وشهدت أن محمدًا رسول الله، والله لا أكثر عليه جمعًا، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام، ونزل في ذلك قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) [المائدة: ١١] [(١)].

قتل كعب بن الأشرف:

يعتبر كعب بن الأشرف النضري من زعماء يهود المدينة، وأحد كبار أحبارهم[(٢)] أضمر الحقد والحسد للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ اللحظة التي وصلته فيها أخبار بعثته للناس هاديا ومبشرًا ونذيرًا[(٣)].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣/٤، المغازي للواقدي، ١٩٦/١، أبو يوسف محمد زايد، مناورات الأشقياء لقتل خاتم الأنبياء، ٢٨/١.

(٢) كان كعب بن الأشرف عربيًا من بني نبهان من طيئ، وكان أبوه أصاب دما في الجاهلية، ثم أتى المدينة فحالف بني النضير فشرف فيهم، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق، فولدت له كعبا، وكان طويلا جسيما ذا بطن وهامة، شاعرا، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله. انظر: ابن إسحاق، سيرة، ص ٢٩٧، ابن هشام، سيرة، ٥١/٣.

(٣) ذكر الزرقاني أن كعبا هدد بقطع صلته المعتادة لأحبار يهود بني قريظة وقينقاع عندما أقروا بنبوة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه ما زال بهم حتى تراجعوا عن قرارهم ذلك. انظر: الزرقاني، شرح، ٨/٢، وروى الطبري عن الزهري وقتادة أنه نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَدَّ

وبعد هجرة الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة عمل علي أذية الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث "كان يهجو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويحرض عليه كفار قريش"[1].

وقد غاظه انتصار المسلمين على قريش في معركة بدر، ولما تيقن من صدق الخبر "ركب إلى قريش فاستغواهم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[2].

كما أنه لفرط عداوته لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما جاء به من الحق المصدق لما معه من الكتاب، نسي المبادىء والتعاليم التوراتية التي يدَّعي أنه يؤمن بها ويدافع عنها، نسي ذلك أو أنه تناساه عمدا، فشهد لحماة الوثنية قريش بأن وثنيتهم وشركهم خير من التوحيد الذي جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك عندما قال له أبو سفيان: أناشدك الله، أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ قال: أنتم أهدى منهم سبيلا[3]، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: ٥١][4].

ولم يكتف كعب بكل ذلك، بل إنه حالف قريشا على قتال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم قدم المدينة معلنًا معادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهجاء المسلمين وشرع في هجائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبلغت به الوقاحة والصلف أن يمتد لسانه إلى نساء المسلمين وشبب بأم الفضل بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوجة العباس عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[5].

بعد تلك الجرائم وغيرها التي ارتكبها كعب بن الأشرف أصبح عدوًّا مستأمنًا بعهد لم يرع ذمامه، ومواطنَ دولة خان دستورها، فكان لزاما أن يُعاقب بجريمته،

كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ...﴾ الآية [البقرة: ١٠٩]، تفسير الطبري، ١/ ٤٨٧.

(١) رواه أبوداود، السنن، ٨/ ٢٢٨، وانظر الألباني، صحيح سنن أبي داود، ٢/ ٥٨١.

(٢) ابن سيد الناس، عيون، ١/ ٣٥٧، والزرقاني، شرح، ٢/ ٩ - ١٠، بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٤١.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي، ص١٥٨.

(٤) انظر: ابن سعد، طبقات، ٣/ ٧٢، تفسير الطبري، ٤/ ٢٠١/، ٥/ ١٣٤ - ١٣٥، دلائل البيهقي، ٣/ ١٩٠ - ١٩٣ - ١٩٤، والواحدي، أسباب، ١٨٧ - ١٨٨، وابن سيد الناس، عيون، ١/ ٣٥٧، تفسير ابن كثير، ٧/ ٥١١، والزرقاني، شرح، ٢/ ٩ - ١٠.

(٥) تاريخ الإسلام للذهبي، ص١٦٠.

ويلقى جزاء خيانته ، وحتى لا يثير قومه فيتحزبوا معه إذا طالبهم بتسليمه أو على الأقل يدبروا أمر هروبه بعيدا فلا تطوله يد العدالة خاصة وهو من كبار زعمائهم ، لذلك رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن خير وسيلة يتم بها التخلص منه هي بقتله سرًّا دون علم قومه[1] ، فندب الصحابة لذلك قائلا: «**من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله**» [2] ويتطوع لهذه المهمة الصعبة محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان أخًا لكعب من الرضاعة فقام وقال: "يا رسول الله أتحب أن أقتله؟" قال: «**نعم**» ، قال: "فأذن لي أن أقول شيئا[3] .

وذكر عروة أن محمد بن مسلمة تشاور مع سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بناء على أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فاتفق معه على خطة استدراجية يطمئن بها كعب إليه فلا يشك بنواياه تجاهه ، فقال له سعد: "توجه إليه واشك إليه الحاجة ، وسله أن يسلفكم طعاما"[4] .

فأتاه محمد بن مسلمة ، فقال: "إن هذا الرجل قد أراد صدقة ، وقد عنَّانا ، فلما سمعه قال: وأيضا والله لتملُّنه ، قال: إنا قد اتبعناه الآن ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره ، قال: وقد أردت أن تسلفني سلفا ، قال: فما ترْهُنني ، قال: ما تريد؟ ، قال: تَرْهُنني نساءكم ، قال: أنت أجمل العرب ، أنرهنك نساءنا ، قال له: ترهونني أولادكم قال: يُسب ابن أحدنا ، فيقال: رهن في وسقين من تمر ، ولكن نرهنك اللأمة (يعني السلاح) ، قال: نعم".

وواعده أن يأتيه ومعه أبو نائلة – وهو أخو كعب من الرضاعة – وذلك زيادة لاطمئنانه ، وثلاثة نفر من الأوس كانوا هم قوة السرية التي توجهت لقتله . وقد

---

(١) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص ١٤١ .

(٢) ابن حجر ، فتح (٦/ ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٠ ، ٧/ ٢٢٦) ، ومسلم (١٢/ ١٦١) ، ووقع في رواية أبي داود عن الزهري أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر سعد بن معاذ رضي الله عنه أن يبعث رهطا فيقتلوه فبعث إليه سعد بن معاذ محمد بن مسلمة وأصحابه ، وحلَّت رواية عروة هذا التعارض ، ففيها أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لمحمد بن مسلمة: إن كنت فاعلا فلا تعجل حتى تشاور سعد بن معاذ ، فقال: فشاوره . ابن حجر ، فتح ، ٧/ ٣٣٨ .

(٣) من رواية البخاري ، الصحيح ، ٥/ ٢٥ .

(٤) انظر ابن حجر ، فتح ، ٧/ ٣٣٨ .

اختلفت المصادر في تسميتهم، وعددهم[1].

وفي ليلة مقمرة شيَّع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحاب السرية إلى بقيع الغرقد، كما يروي ابن إسحاق بسند حسن، ثم وجههم وقال: «**انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم**»، ثم رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بيته[2].

وأقبلوا حتى أتوا حصن كعب بن الأشرف وكان حديث عهد بعرس، وأنهم حينما هتفوا به وثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها، وقالت: إنك امرؤ محارب[3]. وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة، "قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة، ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب"[4].

وكان محمد بن مسلمة قد اتفق مع أصحابه على كيفية قتله، "فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه، ثم أشمكم، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم اضربوه، فنزل إليهم متوشحا وهو ينفخ منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحًا - أي أطيب -".

فقال كعب مفتخرًا: "نعم تحتي فلانة هي أعطر نساء العرب" فقال محمد بن

---

(١) اختلفت المصادر في قوة السرية، فغالبية أهل المغازي، ومسلم، والبخاري عن غير عمرو بن دينار ذكروا أنهم كانوا خمسة مغاوير أَوْسِيُّون هم محمد بن مسلمة، وأبو نائلة، وعباد بن بشر، والحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عبس بن جبير. انظر البخاري، الصحيح، ٥/ ٢٦، ومسلم بشرح النووي، ١٢/ ١٦٢، عبد الرزاق، المصنف، ٥/ ٢٠٣، وابن إسحاق، سيرة، ٢٩٨، والواقدي، مغازي، ١/ ١٨٧، وابن سعد، طبقات، ٢/ ١٩٧ - ١٩٨.
ويذكر ابن حجر في روايات يشير إليها في الفتح أن عددهم كان ثلاثة فقط، ثم إنه رجح روايات أهل المغازي، وبعد ذلك يحاول الجمع فيقول ويمكن الجمع بأنهم كانوا مرة ثلاثة، وفي الأخرى خمسة. ابن حجر، فتح، ٧/ ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٢) انظر ابن إسحاق، سيرة، ٢٩٨ - ٢٩٩، وحسنٌ ابن حجر إسناده. ابن حجر فتح، ٧/ ٣٣٨، وأخرجه عن ابن إسحاق الإمام أحمد، الفتح الرباني، ٢١/ ٤٩، والبزار، الهيثمي، كشف الأستار عن زوائد البزار، ٢/ ١٣٠ - ١٣١، والطبراني، معجم، ١١/ ٢٢١، وقال الهيثمي: وفيه ابن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد، ٦/ ١٩٦، وإن كان ابن إسحاق صرَّح بالتحديث فانتفت شبهة التدليس، كما أخرج الحديث عن ابن إسحاق بن راهويه. انظر السيوطي، الخصائص الكبرى، ١/ ٥٢٧.

(٣) هذا اعتراف ضمني من امرأة كعب بأنه عدو محارب للمسلمين، ولكن كيف نُقل عنها ما قالت فلعلها حدثت به نفسها، أو لعله نُقل ما حدثت به للصحابة الذين قتلوه.

(٤) من رواية البخاري، الصحيح، ٥/ ٢٦.

مسلمة: "أتأذن لي أن أشم رأسك؟، فشمه، ثم أشم أصحابه، ثم قال: أتأذن لي؟، قال: نعم، فلما استمكن منه، قال: دونكم، فقتلوه، ثم أتوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبروه"(١).

"فلما قتلوه فزعت اليهود والمشركون، فغدوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: طُرق صاحبنا فقُتل، فذكر لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كان يقول، ودعاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتابًا ينتهون إلى ما فيه. فكتب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبين المسلمين عامة صحيفة"(٢).

"وقد يبدو مقتل ابن الأشرف متسمًا بالغدر، ولكن صاحب النظر الفاحص، والبصيرة النافذة يدرك أن ابن الأشرف معاهد بموجب الصحيفة التي التزم فيها يهود بني النضير مع الآخرين، وأنه بهجائه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو رئيس الدولة بالنسبة لابن الأشرف، وبإظهاره التعاطف مع أعداء المسلمين ورثاء قتلاهم، وتحريضهم على المسلمين يكون قد نقض العهد وصار محاربا مهدور الدم، وأما استدراجه ممن يثق بهم وقتله بالخديعة، فإنه جائز مع المحارب، وقد تم بأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(٣).

هذا وقد ذكر ابن القيم أن قتل ساب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جائز بإجماع الخلفاء الراشدين ولا يعلم لهم في الصحابة مخالف، فإن الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لأبي برزة وقد هم بقتل من سبه: لم يكن هذا لأحد غير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ومر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ براهب، فقيل له: هذا يسب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: لو سمعته لقتلته، إنا لم نعطهم الذمة على أن يسبوا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإن قيل: فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقتل عبد الله بن أُبي وقد قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل، ولم يقتل ذا الخويصرة التميمي وقد قال له: اعدل، فإنك لم تعدل، ولم يقتل من قال له: يقولون: إنك تنهى عن الغي وتستخلي به، ولم يقتل القائل له: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، ولم يقتل

---

(١) من رواية البخاري، الصحيح، ٥/ ٢٥ - ٢٦، وابن حجر، فتح، ٧/ ٣٣٧.

(٢) انظر: عبد الرزاق، المصنف، ٥/ ٢٠٤، والألباني، صحيح سنن أبي داود، ٢/ ٥٨١ واللفظ له، والبيهقي، دلائل، ٣/ ١٩٨. وعنده "فكتب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة". وذلك أتم.

(٣) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٤٦.

من قال له لما حكم للزبير بتقديمه في السقي: إن كان ابن عمتك، وغير هؤلاء، قيل: الحق كان له فله أن يستوفيه، وله أن يسقطه، وليس لمن بعده أن يسقط حقه، كما أن الرب تعالى له أن يستوفي حقه، وله أن يسقط، وليس لأحد أن يسقط حقه تعالى بعد وجوبه، كيف وقد كان في ترك قتل من ذكرتم وغيرهم مصالح عظيمة في حياته زالت بعد موته من تأليف الناس، وعدم تنفيرهم عنه، فإنه لو بلغهم أنه يقتل أصحابه، لنفروا، وقد أشار إلى هذا بعينه، وقال لعمر لما أشار عليه بقتل عبد الله بن أبي: "لا يبلغ الناس أن محمدا يقتل أصحابه"[1].

ولا ريب أن مصلحة هذا التأليف، وجمع القلوب عليه كانت أعظم عنده وأحب إليه من المصلحة الحاصلة بقتل من سبه وآذاه. ولهذا لما ظهرت مصلحة القتل، وترجحت جدًّا قَتَلَ الساب، كما فعل بكعب بن الأشرف فإنه جاهر بالعداوة والسب فكان قتله أرجح من إبقائه، وكذلك قَتلُ ابن خطل، ومقيس، والجاريتين، وأم ولد الأعمى، فقتل للمصلحة الراجحة، وكف للمصلحة الراجحة، فإذا صار الأمر إلى نوابه وخلفائه، لم يكن لهم أن يسقطوا حقه".

ولا ريب أن المحاربة بسب نبينا أعظم أذيةً ونكاية لنا من المحاربة باليد ومنع دينار جزية في السنة، فكيف يُنقض عهده ويُقتل بذلك دون السب، وأي نسبة لمفسدة منعه دينارًا في السنة إلى مفسدة منع مجاهرته بسب نبينا أقبح سب على رءوس الأشهاد، بل لا نسبة لمفسدة محاربته باليد إلى مفسدة محاربته بالسب، فأولى ما انتقض به عهده وأمانه سب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا ينتقض عهده بشيء أعظم منه إلا سبه الخالق سبحانه. فهذا محض القياس ومقتضى النصوص، وإجماع الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وعلى هذه المسألة أكثر من أربعين دليلا[2].

قال عياض: ولا يحل لأحد أن يقول إن قتله كان غدرًا، وقد قال ذلك إنسان في مجلس علي بن أبي طالب فأمر به فضُربت عنقه، وإنما يكون الغدر بعد أمان موجود، وكعب قد نقض عهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يؤمنه محمد ورفقته لكنه

(١) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٤٦، الدكتور أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني، خصائصه وتنظيماته الأولى، ١٤٢ - ١٤٣.

(٢) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٤٦، الدكتور أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني، خصائصه وتنظيماته الأولى، ص ١٤٢ - ١٤٣.

استأنس بهم فتمكنوا منه من غير عهد ولا أمان، وقيل: لأن محمد بن مسلمة لم يصرح له بالأمان في شيء من كلامه، وإنما كلمه في أمر البيع والشراء، واشتكى إليه وليس في كلامه عهد ولا أمان[1].

وربما يلتبس على البعض أن قَتْلَ كعب بن الأشرف يتعارض مع بعض الأحاديث الناهية عن الفتك والغدر، ولكن اللبس هنا مرفوع؛ فالغدر لا يكون إلا بإنسان له عهد وميثاق ملتزم بهما غير ناكث لهما، وإلا قيل إن غزو مكة وفتحها كان غدرًا لوجود العهد والميثاق المبرم في صلح الحديبية. وكعب بن الأشرف علاوة على عدم التزامه بميثاق الدولة التي يعتبر أحد أفرادها جاهر بعداوته للمسلمين ولقائد الدولة، وأخذ يحرض عليهم، ولم يقتصر الأمر بفداحته على ذلك، بل سافر إلى عدوهم وعاهدهم على قتال المسلمين، وكان كل ذلك كافيا لإظهار عداوته، ولكنه عندما رجع إلى المدينة صار يؤذي المسلمين - وهم أفراد مساوون له في الحقوق تحت ظل دولة واحدة غير مكترث ولا عابىء - وذلك بهجائهم والتشبيب بنسائهم، وهو أمر عظيم كانت الدماء تسيل فيه أودية في الجاهلية فكيف وقد أعز الله المسلمين بالإسلام[2].

وانتشر خبر مقتل ابن الأشرف في المدينة، فأسرع أحبار اليهود إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشتكون ويحتجون على مافعله أصحابه، فلم يحفل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهم، بل أكد مقتله الذي كان نتيجة حتمية لموقفه المعادي، وقد أوقعت هذه الحادثة الرعب في نفوس اليهود جميعهم، فلم يعد أحد من عظمائهم يجرؤ على الخروج من حصنه، كما لم يعد أحد من يهود المدينة إلا ويخاف على نفسه من المسلمين، واضطر اليهود لتجديد المعاهدة، وكان من عظمة الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لم يؤاخذ بني النضير بجريرة كعب بن الأشرف واكتفى بقتله جزاء غدره وجدد المعاهدة معهم[3].

وعلى كل حال فإن اليهود خافوا خوفا شديدا بعد مقتل كعب بن الأشرف، فلم يطلع أحد من عظمائهم، وبذلك العمل الجريء أخرس رسول الله

---

(١) الزرقاني، شرح، ٢/ ١٣، وانظر البيهقي، دلائل، ٣/ ١٩٣، والخطابي، معالم السنن، شرح السنن لأبي داود، ٣/ ٢١٢ - ٢١٣.

(٢) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٥٠.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ٣٠٤.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألسنتهم، ورد كيدهم إلى نحورهم، وكبت حقدهم في صدورهم دون أن تراق دماء كثيرة، فالمجرم المحارب نال جزاءه وعقابه العادل والذي أصبح عبرة وعظة لمن تسول له نفسه من اليهود، أو المشركين في المدينة القيام بمثل ما فعل.

ومن خلال سياق أحداث هذه القصة يبدو لنا أمران ملفتان للنظر:

أولهما: قول امرأة كعب له: إنك امرؤ محارب.

وثانيهما: ردة فعل وفد اليهود الذين جاءوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشتكون من مقتل زعيمهم كعب، حيث إنهم حينما وضح لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صنيعه وما كان يفعل سكتوا ولم ينطقوا بشيء.

فهذان اعترافان من أقرب الناس لكعب بجريمته التي استحق عليها القصاص العادل[1].

غزوة بحران[2]:

ولما بلغه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن جمعًا من بني سُليم يريدون الغارة على المدينة، فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلي حران من ناحية الفرع بقوة بلغ تعدادها (٣٠٠) مقاتل مستهدفا بني سليم الذين كانوا يؤمّنون الطريق التجارية لقريش بين مكة المكرمة وبلاد الشام، وذلك في جمادى الأولى سنة ٣ هـ[3]. ويبدو أنه لم يلق كيدا، حيث وجدهم قد تفرقوا، فانصرف عنهم ولم يقع قتال[4]. وعاد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلي المدينة بقواته بعد عشرة أيام[5].

سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدة:

كانت السرايا والبعوث التي قام بها الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أثرت على اقتصاد قريش وفرضت عليهم حصاراً اقتصادياً قوياً، وكان الاقتصاد المكي

(١) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٥١.

(٢) بُحران: موضع بين الفُرُع والمدينة. انظر: السيرة النبوية، ٣ / ٣١٣، دلائل النبوة، ٣ / ١٧٢.

(٣) ابن هشام، السيرة، ٢/ ٤٢٥، الواقدي، المغازي، ١/ ١٩٦، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٣٥.

(٤) ابن هشام، السيرة، ٢/ ٤٢٥.

(٥) ابن كثير، البداية، ٤/ ٣.

قائماً على رحلتي الشتاء والصيف، رحلة الشتاء إلى اليمن وتحمل إليها بضائع الشام ومحاصيلها، ورحلة الصيف إلى الشام تحمل إليها محاصيل اليمن وبضائعها، وقطع أحد جناحي هاتين الرحلتين ضر للجناح الآخر، لأن تجارتهم إلى الشام قائمة على سلع اليمن، وتجارتهم إلى اليمن قائمة على سلع الشام قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش].

قال صفوان بن أمية لقريش - وهو الذي نخبته قريش في هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشام -: إن محمداً وصحبه عَوَّرُوا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء. وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف، وإلى الحبشة في الشتاء.

وأخذت قريش تبحث عن طريق آخر لتجارتهم للشام، فأشار بعضهم إلى طريق نجد العراق - وهي طريق طويلة جداً تخترق نجداً إلى الشام، وتمر في شرقي المدينة على بعد كبير منها، وكانت قريش تجهل هذه الطريق كل الجهل - فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فُرَات بن حَيَّان، دليلاً له، ويكون رائده في هذه الرحلة.

وقد سلكوها بالفعل، وخرج منهم تجّار، فيهم أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبدالعزّى، ومعهم فضة وبضائع كثيرة، بما قيمته مائة ألف درهم، فبلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواسطة أحد أفراد جهاز الأمن الإسلامي يدعى سليط بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فبعث زيد بن حارثة في مائة راكب لاعتراض القافلة، فلقيها زيد عند ماء يقال له القَرَدة، وهو ماء من مياه نجد، ففرّ رجالها مذعورين، وأصاب المسلمون العير وماعليها، وأسروا دليلها فُرات بن حيّان الذي أسلم بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعادوا إلى المدينة، فخمسها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووزع الباقي بين أفراد السرية، ووقعت أحداث هذه السرية في جمادي الآخرة سنة ٣ هـ[1].

وكانت مأساة شديدة ونكبة كبيرة أصابت قريشاً بعد بدر، اشتد لها قلق

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٣/٥٦.

قريش وزادتها هما وحزناً . ولم يبق أمامها إلا طريقان ، إما أن تمتنع عن غطرستها وكبريائها ، وتأخذ طريق الموادعة والمصالحة مع المسلمين ، أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد ، وعزها القديم ، وتقضي على قوات المسلمين بحيث لا يبقي لهم سيطرة على هذا ولا ذاك ، وقد اختارت مكة الطريق الثانية ، فازداد إصرارها على المطالبة بالثأر ، والتهيؤ للقاء المسلمين في تعبئة كاملة ، وتصميمها على الغزو في ديارهم ، فكان ذلك وما سبق من أحداث التمهيد القوي لمعركة أحد[1] .

* * * * *

(١) الرحيق المختوم ، ص ٢٤٤ .

obeikan.com